محمد رسول الله أول من أعلن حقوق الإنسان

(يناير سنة 1960م)

في اليوم التاسع من شهر ديسمبر من عام 1949م وفي فورة من فورات النفاق الدولي، أعلن الساسة في هيئة الأمم المتحدة حقوق الإنسان، ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الحادية عشر لهذا الإعلان منذ اثنين وعشرين يومًا، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم، ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين) أعلن قادة الثورة الفرنسية هذه الحقوق عام 1789م وصاغوها في سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة 1791م.

ومن السهل على الذهن الاجتماعي أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد الكهنة، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحدة لهذه الحقوق بعد أن رأت حوت الشيوعية معترضًا في خضم الحياة وقد فغر فاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ؛ ولكن من الصعب على الذهن المنطقي أن يدرك ما يريده الأوربيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذي أعلنوا له هذه الحقوق، وظاهروا عليه هذا العطف! أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذي تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون! أما الإنسان الأحمر في أمريكا فهو في رأي أبناء العم سام ضرب مهين من الخلق، عليه كل واجب وليس له أي حق. وهذا الوجود المعدوم في بلاد الديمقراطيين الأحرار لا يزال في رأي المسلمين أغلظ كذبة في دستور الديمقراطية بواشنطون، وأكبر لعنة على تمثال الحرية في (نيويورك)، وأما الإنسان الأسمر والأسود في أفريقيا، أو الأخضر والأصفر في آسيا، فهو في نظر الفرنسيين والإنجليز نوع من بهيمة الأنعام، وجنس من المواد الخام، يولد ليسخَّر، ويروَّض ليستثمر، وينتج ليستهلك، وهو موضوع الخصومة في السلم، ومادة الغنيمة في الحرب. وهذا الحق المهضوم بين أمم العلم والدستور لا يزال في نظر المسلمين اتهامًا لصحة الثقافة في جماعات فرنسا، وإنكارًا لحقيقة العدل في برلمان إنجلترا! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان في القديم والحديث اضطراب

الأساس وفسد القياس واختلاف التقدير، فلكل جنس وزنه ولكل لون قيمته، ولكل دين حسابه. ومدار الوزن والتقويم والحساب هو على قدرة الإنسان وعجزه، لا على إنسانيته وفضله، فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة؛ والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية. والسيادة حق ليس بإزائه واجب، والعبودية واجب ليس بإزائه حق.

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد، ومحمد وحده هو الذي أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله وحده هو الذي ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة.

أرسله رحمة للذين استضعفوا في الأرض لقلة المال كالمساكين، أو لفقد العشير كالموالي، أو لضعف النصير كالأرقاء، أو لطبيعة الخلقة كالنساء، فكفل الرزق للفقير بالزكاة، وضمن العز للذليل بالعدل، ويسر الحرية للرقيق بالعتق، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة.

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبيَّن، ولا من وطن معين: إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربي والفارسي والرومي والتركي والهندي والصيني والبربري والحبشي على شرع واحد هو شرع الإسلام، وتحت تاج واحد هو تاج الخلافة! والإسلام الذي يقول شارعه العظيم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:70] لم يخص بالتكريم لونًا دون لون، ولا طبقة دون طبقة، إنما ربأ ببني آدم جميعًا أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان.

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم. وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض ومن سواهم خدم، وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان ومن عداهم عجم.

وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت[1] من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوي الأمر بين رأس وكتف وقدم!.

وكان النظام الاجتماعي العالمي قائمًا كله على الامتياز بالجنس أو بالدين، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال، حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 9]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:13] وأكدها بقوله صلوات الله عليه: " الناس سواسية كأسنان المشط "، " لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ". " كلكم لآدم وآدم من تراب ".

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء يملكان ولا يتصرفان، فضيّق الإسلام حدود الرق، وجعل كفارة الذنوب بالصدقة والعتق، وسوّى بين الرجال والنساء في الحق والواجب.

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: 256] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: 99] واحترم عقائد أهل الكتاب وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء، وأمر الولاة أن يرعوهم ويعطفوا عليهم، وأوصى المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم.

ثم أعلن الإسلام حرية الفكر والرأي فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد، وأمر بالنظر في ملكوت السماوات والأرض. ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب، ولأهل الجدل حتى كثرت الفرق، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب.

---

(1) قلت: راجبوت (وأصلها "راج بوترا" بالسنسكريتية، وتعني "ابن الملك") هو مصطلح يطلق على أبناء قبائل تقطن غرب ووسط وشمال الهند وشرق باكستان. علا شأن هذه القبائل منذ أواخر القرن السادس الميلادي وحكمت القسم الأكبر من الولايات الأميرية في راجستان وسوراشترا إبان حكم الراج البريطاني.

وسمح لأهل الذمة وأصحاب النحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها في المدارس والمجالس والبيع، ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتي هي أحسن.

ثم احترم الملكية وثبت لها الأصول، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل وهذه هي جماع الحقوق الطبيعية التي كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأديانه وألسنته. أعلنها محمد ابن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرنًا ونصف قرن والأمر يومئذ للجهالة، والرأي للضلالة، والحكم للطغيان، فأنقذ الإنسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة؛ ثم أكرمها ونعمها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد. ولكن الإنسانية واأسفاه ضلت هذا السبيل، أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق، وهم يسرون في أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق.